

# الفصل الثانی

## الشعور

إن الحالات النفسية التي تجرى في أنفسنا نشعر بوجودها ، وهذه الحالات لا مكان لها ، وهي موجودة في الشعور . ولبيان فكرة الشعور يكفي أن تنظر إلى شخص نائم ، فهو في هذه الحالة لا يشعر بشيء ، حتى إذا ما أخذ يصحو ، ابتداءً عنده الشعور بالأشياء المحيطة به ، وبالرغبات التي يطلبها ، فهو يرى النور والحائط والنافذة والمنضدة والكرسي ، وينظر إلى الساعة ويدرك مقدارها ، ويسمع الأصوات التي تصدر من الشارع ، ويحس بدفء الفراش ، وبرودة الهواء ، ويشعر بالحاجة إلى النهوض ، ليرتب نفسه قبل الذهاب إلى عمله في الساعة الثامنة ، ثم ينظر إلى الساعة فيخشى التأخر عن ميعاد العمل ، ويسرع في ارتداء ملابسه ، ويخرج من منزله مسرعا .

هذه الحالات المختلفة التي يحتويها الشعور تسمى « الظواهر النفسية » وليست الظواهر النفسية بدرجة واحدة من الشعور ، فهناك ظواهر يشعر الإنسان بها شعوراً تاماً واضحاً ، وأخرى تكون أقل وضوحاً من الأولى . فإذا ذهبت لتتناول كتاباً من فوق المنضدة ، فإن رؤية الكتاب وتمييز اسمه ومكانه بالنسبة إلى المنضدة ، يكون كل ذلك جلياً في الشعور ، ولكنك في نفس الوقت الذي ترى فيه الكتاب ، يقع بصرك على أشياء أخرى كثيرة تحيط به ، وترى يدك وهي ممدودة لأخذه ، ويصل إلى سمعك أصوات مختلفة ، هذه الظواهر كلها موجودة

في ذهنك ولكنها غامضة ، ليست في درجة الوضوح التي شعرت بها حين تناولت الكتاب . فهي موجودة فيما نسميه « هامش الشعور »<sup>(١)</sup> ، فالشعور يأتي في الدرجة الأولى ، ويتلوه هامش الشعور . وليس هناك فاصل دقيق وحاجز كبير يقف بين الشعور وهامشه ، بل هذه الطبقات المختلفة من الشعور ، تتراوح من الوضوح إلى الغموض ، في اتصال مستمر ، مثلها مثل الشمس عند المغيب ، لا ينقطع نورها عن الأرض فجأة ثم يحل الظلام ، بل يطغى الليل على النهار بالتدريج والظاهرة النفسية ، التي هي لحظة من حياة الشعور ، تختلف عن الظواهر الطبيعية من ثلاث نواح :

( ١ ) إن الظاهرة الطبيعية مثل غليان الماء ، وتمدد الحديد بواسطة الحرارة هي حقائق موضوعية ، بمعنى أن الإنسان ، يراها من الخارج ، ويستطيع جميع الناس أن يروها بنفس الحالة ؛ أما الظاهرة النفسية فلا يدركها إلا صاحبها ، لأنه هو الذي يشعر بها ، وأكبر دليل على هذا الأعمى الذي يولد كذلك فإنه لا يصل مطلقاً إلى تمييز الألوان . ومن أعجب ما لوحظ في هذا الصدد أن سيدة أمريكية تدعى « لورابردجان » ولدت صماء بكماء ، سنة ١٨٢٩ ، ثم فقدت بصرها وهي صغيرة ، وأخذ العلماء يعلمونها عن طريق اللمس ، قالت : في أحد الأيام : « إني أود لو أن لي عينين ورديتين وشعراً أزرق »<sup>(٢)</sup> ويقول الصبي الأعمى لأمه :

يا أم ما شكل السماء وما الضياء وما القمر .

( ٢ ) لا تجري الظواهر النفسية في المكان ، فهي كالفرح والألم لا موضع

Subconscience. (١)

Manuel de Philosophie. Cuvillier. page 31. (٢)

لها . وإذا كنا نضطر إلى استعمال ألفاظ تدل على المكان كأن نقول إن الفرح موجود في النفس ، فلفظة « في » التي تدل على المكان ، إن هي إلا ضرورة لغوية .  
( ٣ ) كذلك لا يمكن قياس الظواهر النفسية على نهج الظواهر الطبيعية .  
وقد رأينا أن محاولات العالمين ( فير ) و ( فشر ) فشلت في قياس الإحساس وهو أبسط الظواهر النفسية وأقربها إلى الظواهر الطبيعية .

### مجرى الشعور :

إن المظاهر النفسية تجري في الشعور دون انقطاع وتتغير تغيراً مستمراً وتتصل بصاحبها الذي يشعر بها . ونستطيع أن نشبه الظواهر النفسية التي تجري في الشعور بماء النهر الذي يتدفق في مجراه ، ولا تنقطع حياة الشعور إلا في حالات النوم أو الإغماء أو التخدير ، أما في حالة الصحو فإن الظواهر لا تنفك عن الوجود في الذهن . وإذا شئنا أن نتناول ظاهرة واحدة لنحللها ، ونضعها تحت منظار عقولنا لندرسها ، فإنه يجب علينا أن نقتطعها اقتطاعاً من الحياة النفسية ، وأن نفصلها على حدة من مجرى الشعور لتبين لنا في جلاء ووضوح ، ولكن الحقيقة أن الظواهر يتصل بعضها ببعض دون انقطاع .

فالظاهرة النفسية هي لحظة من حياة الشعور ، نركز فيها انتباهنا ، ونفصلها عن مجرى الشعور لأنها تهمنا أهمية خاصة .

### تحليل الظواهر النفسية :

إذا أردنا أن ندرس ظاهرة نفسية ، مثل تحية صديق ، يجب أن نلقي في بالنا أن هذه الظاهرة لم تحدث بمفردها ، بل في نفس اللحظة التي سلمت فيها على صديقك قد رأيت أشياء أخرى عدة مثل العربات التي تجري في الشارع ،

والأشخاص الذين يمرون بجانبك ، ووصل إلى ذهرك أصوات أخرى مختلفة كأبواق السيارات ، وضجيج المارة ، وأشياء أخرى كثيرة كلها حصلت في نفس اللحظة . فأنت إذ تدرس هذه الظاهرة وهي تحية صديقك فإنك قد انتزعتها من بين ما سبقها وما تلاها وما حدث معها لتسهيل البحث . فإذا اقتطعنا ظاهرة من هذه الظواهر على حدة لدراستها مثل ما يأتي :

قطفت وردة ، طلبت كتاباً من صديقك ، خرجت من منزلك ، تناوأت الطعام ، ذهبت إلى دار الخيالة ، فإننا نجد عند البحث أن كل ظاهرة نفسية لها ثلاثة وجوه ، إدراك ، ووجدان ، ونزوع .

يمر الإنسان بشحاذ مسكين فيعطيه قرشاً . فأول شيء حدث هو إدراك أن الشخص الموجود مسكين يستحق المعونة ، ويصل إلينا هذا الإدراك أو هذه المعرفة عن طريق البصر ، فنعرفه بشكله ولونه وملابسه ومميزاته . يعقب ذلك أن يشعر الإنسان بألم من هذا المنظر ، وهذا يسمى الوجدان ، فيؤدي كل ذلك أخيراً إلى أن ينزع الإنسان إلى أن يضع يده في جيبه ليعطي الشحاذ قرشاً ، وهذا ما يسمى بالنزوع .

فكل ظاهرة نفسية يحصل فيها هذه المظاهر الثلاثة ، ومن الخطأ القول أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، لأن الحدث واحد وأجزاؤه متصلة لا انقسام فيها ، وكل ما في الأمر أننا ننظر إليه من ثلاثة أوجه .

**الإدراك :** إننا حين نتكلم عن الإدراك فيا يختص بالتقسيم الثلاثي السابق نغني بذلك أي نوع من المعرفة ، فهناك معرفة كلما كان هناك إدراك لأي شيء من الأشياء الخارجية ، مادية حسية كانت أم معنوية مجردة ، كالصديق أو الشجرة أو العربة أو الكرسي ، أو إدراك الجمال في صورة ، والنكتة في حديث وأشياء هذه

الأشياء المعنوية . وهناك معرفة إذا كان هناك « تذكر » لأى حادثة مرت عليك فى الماضى ، مثل ذكرك لاسم صديق لك . وهناك معرفة إذا تصورت « صورة » أو « خيالا » ، سواء أمرت عليك صورة الشئ الذى تتصوره ، مثل صورة المدرسة التى كنت فيها ، أم ابتدعت هذا الخيال ، مثل تخيلك القصر الذى تحلم أن تبنيه لنفسك فى المستقبل . فى جميع هذه الحالات كل ما ندركه — سواء أكان شيئاً خارجياً مادياً أو معنوياً ، أم كان شيئاً باطنياً — كل هذا هو موضوع الإدراك . بينما الشخص الذى وقعت له هذه الأشياء هو الذى يدرك هذا الموضوع .

**الوجدان :** الواقع أن تعريف الوجدان وشرح ماهيته أمر عسير ، فإذا ذهبت إلى حديقة منسقة ، وأحسست لمنظرها السرور ، هل تستطيع أن تقول ما هو « السرور » ؟ هو حال نفسية نعرفها لأننا جربناها ليس إلا . ثم إنه من ناحية أخرى ، تعترضنا صعوبة أخرى عند الكلام على الوجدان ، وهى الفقر فى المصطلحات من هذه الناحية ، سواء أكان ذلك فى اللغة العربية أو الأجنبية ؛ فنحن نقول « أحسست بفرح » وهذا يدخل فى روعنا معنى الإحساس ، وهو شئ آخر غير الوجدان ، أو نقول « شعرت بغضب » وكلمة الشعور أطلقناها على شئ آخر فى علم النفس ، وهو كل ما يمر بنا من الحالات النفسية ونشعر بها ، ونحن نذكر هذه الفوارق لننتبه إليها فيما بعد .

ويطلق الوجدان إما على تأثر الإنسان بارتياح أو عدم ارتياح ، أو ما يسمونه تجاوزاً لذّة وألماً ، وإما على انفعال الشخص بانفعال خاص ، كالغضب أو الخوف أو الدهشة أو القلق .

فاللذة والألم ، حالتان نفسيّتان عامتان ، أما الانفعال فخاص .

فإذا شربت في الصيف كوباً من الماء الثلوج شعرت بعده بلذة أو ارتياح ،  
وتختلف اللذة والألم من حيث الحدة والفتور ، وعلى العموم فإنها حالات عامة  
غير محدودة .

وإذا قابلت عرضاً صديقاً تود مقابله ، فوجدانك نحوه هو انفعال الدهش ،  
وهو انفعال محدود تستطيع وصفه ، وهذا بجانب شعورك بالارتياح من هذه المقابلة .  
وسياتى تفصيل الفرق بين أنواع الحالات الوجدانية في فصل خاص .

**النزوع :** هو الدافع النفساني الذي يدفعك إلى القيام بعمل من الأعمال ،  
فإذا رأيت وردة جميلة في حديقة فإنه يحصل عندك إدراك أن هذه وردة ، ثم تشعر  
بوجدان خاص هو الارتياح والسرور أو اللذة لرؤيتها ، فتزعم ، أى يحصل عندك  
دافع لقطفها ، فتقطفها .

وليس من الضروري أن يكون الدافع النزوعي متحققاً في النهاية في صورة  
عمل إيجابي كرؤيتك الوردة وقطفها ، أو رؤيتك قميصاً جميلاً عند بائع القمصان  
وشرائه ، ولكن قد يكون الدافع متحققاً في صورة سلبية ، مثال ذلك : إذا رأيت  
قطعة طباشير ، ووجدت أن يدك ستسوخ منها ، فلا تحاول الإمساك بها ، أو إذا  
كنت في الطريق ورأيت ناحية من الشارع مبللة قدرة ، فتتجنبها ولا تقدم على  
المشي فيها ، فالنزوع قد يكون لتحقيق عمل والقيام به ، أو الصدوف عنه .  
ثم إنه ليس من الضروري أن يتحقق النزوع في صورة عمل أو حركة ،  
ولكننا — كما قلنا — نقصد بالنزوع الدافع النفساني الذي يدفعك إلى عمل من  
الأعمال ، ولا يهمنا إذا كان هذا العمل يتم في صورة حركة أم لا .

فمثلاً إذا وقفت خارج سور حديقة ، ورأيت خلاله وردة ، فحصل عندك  
إدراك ، ثم وجدان ، فلا شك أنك تنزع لقطفها أو الاستيلاء عليها ، ولكن

السور الحديدي يمنعك من ذلك ، أو أن الرغبة غير شديدة ، ولكن هذا لا يدل على عدم وجود النزوع في مثل هذه الظاهرة . كذلك الراقد في سريره تعباً ، يريد القيام ويهم به ، ولكنه لتعبه وثقله لا ينفذ ذلك ، فهذا لا يدل على أنه خالٍ من النزوع ، بل هو عنده دافع إلى القيام ، ثم لوقام بالفعل لعددنا هذا بالفعل منه حركة ، ولكنه لم يتم ، إذن لم تتم الحركة . والواقع أن الحركة إذا كانت لم تتم مادياً في الخارج فهي قد تمت في ثنايا النفس ، وهذا ما يهمننا ببحثه . والخلاصة مما تقدم ، هو أن كل ظاهرة نفسية نحللها إلى ثلاثة أقسام : إدراك أو معرفة ، ثم وجدان ، ثم نزوع ؛ ويجب أن تعلم أن هذا التقسيم المذكور هو تقسيم صناعي ، فليس هناك إدراك ووجدان ونزوع مفصلة ، ولكن كل ذلك يحصل في لحظة واحدة ، يختلط فيها الكل ، وينساب الإدراك والوجدان والنزوع بعضها في بعض ؛ فنحن ننظر إلى الظاهرة النفسية الواحدة من هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرناها ، لفائدة البحث ، ولتسهيل درس الحياة النفسية .

---